صقر الصحراء

بقلم : محمود البدوى

كنا ثلاثة من الشبان الأشداء .. خرجنا من القاهرة فى سيارة جيب فى وسط النهار الى قلب الصحراء ...

وكان الجو حارا والطريق صعبا .. والسيارة العتيقة تخب بنا خبا فى جو ينذر بالزوابع .

وبدت الرمال من حولنا صفراء تلتمع من وهج الشمس الحامية وكثبان الرمال تسفيها الريح .

ولقينا واتقينا الشمس والعاصفة ما وسعنا الجهد ... وكانت البيداء من حولنا لا يحدها الطرف .

وكنا نعسرف الطريق الى البئر .. ولكنا نخشى العطب الذى يصيب السيارة

ولذلك اعددنا العدة بقطع الغيار اللازمة لكل الطوارىء .

وكنا نحن الثلاثة نعرف فى ميكانيكا السيارات أكثر من معرفتنا بامور الحفر فى البئر الذى نقصده ..

وكانت البئر هناك فى أرض رملية على بعدة ١٦٠ كيلومترا من المدينة ونود أن نطبق على التربة الصحراء نظرية علمية معززة بالتجربة العملية..

وتجرى عليها الماء وتزرعها ثمارا وبطيخا ما بلغنا العدد ..

وكان العمال يقومون هناك بأعمال الحفر والمجرات بقلب التربة وكل شىء قد هيىء للزراعة .

وعندما قطعنا مايقرب من ثلاثين كيلومترا فى قلب الصحراء ... كانت الشمس قد التهبت وزادت حرارتها .. وحبات الرمال بدت كجمرات من النار المتقدة ..

وأخذ الماء يغلى فى جوف السيارة ويتصاعد منه البخار فاخذنا ... نزوده بالماء البارد بعد كل مرحلة حتى احتراق المحرك ..

ولم يكن هناك طير يحلق فى السماء ولا وحش فى الارض .. وحين والى الساعة الثالثة بعد الظهر هدات الريح وسكنت الزوبعة وبدت الرمال .. الساكنة .. هى الشىء الوحيد الذى يتنفس فى هذا التيه . فلم يكن هناك زرع ولا ظل لزرع ..

وكنا قد رفعنا الغطاء فوق السيارة منذ اشتعال الشمس وهبوب العاصفة .

وجلس أحدنا يجانب السائق ..

وجلست وحدي في الخلف مستريحا حالما بالروع النصير في تلك البيداء .. التي بدت كأنها لا تنتهي فيها الحياة !

وكانت معنا زوادة كاملة من الطعام والشراب ولكن حتى عندما اقترب .. العصر لم نكن نحس بجوع .. وشربنا قليلا من الماء حتى لا نعرق في طوفان من العرق .

وكنا ثلاثتنا ندخن بكثرة وكان السائق أكثرنا شراهة في أشعال .. النار .

وكانت الطريق خالية من السيارات تماما ولكن صعوبتها جاءت من أنها غير سوية وكثيرة المنعرجات والمرتفعات فكنا نعلو ونهبط بعد كل خمسين .. دراعا .

وظهر للعيان أنها أقيمت على سلسلة من التلال التي يأخذ بعضها برقاب بعض وأن الذين اختاروا لها هذا المكان لم يجدوا ما هو أحسن منه .

والذي يقطع الصحراء يحس بالوحشة بعد ساعة واحدة من رهبة النيه وفرط السكون المخيم وأحسسنا بالوحشة من خلو الطريق وسكونه .

وكان مع أكبرنا سنا بندقية صيد .. ولكنا لم نعثر قط على شيء نطارده .. ولم يكن الصيد قصدنا ولا مبتغانا فلم نتنس ..

وكنا نحن الثلاثة في سن متقاربة لا تتجاوز الخامسة والعشرين من أعمارنا ولم نتزوج بعد ودار في خلدنا ونحن نمضي في هذا التيه أنه اذا غمرتنا الرمال فليس هناك من ولد يبكينا ولا زوجة تندبنا .. وان الرسالة ستمر بسلام .. !

وبعد أن اجتزنا نصف المرحلة هبت نسمة من الهواء الرخي أنعشت نفوسنا ورطبت أجسادنا ولكن بعد دقائق معدودات خنقتها الحرارة ... الخانقة .. وذابت فيها .

وسرنا والعرق يسح والارض تشمس مثل النار .

وكان لابد ان تستريح السيارة بعد ثلاث ساعات من السير الجاد . فعلنا بها عن الطريق .. ورفعنا غطاء المحرك ...

وأكلنا بعض الزاد وشربنا وبعد نصف ساعة تحركنا بمثل الحال الأول ولكن الراحة القليلة أفادتنا كما أفادت السيارة .

وكانت الرؤية واضحة والسماء أكثر صفاءا ورقة من أي ساعة .. شاهدناها فيها .

وعندما مالت الشمس بنا الى المغيب لمحنا من بعيد قافلة من الجمال على الجانب الأيمن من الطريق .

ولما اقتربت منا لاح راعيها بعصاه الطويلة وتمهلنا وسرنا من سرعة السيارة مخافة أن تنفر الجمال على صوت المحرك .. او أن تغير وجهتها وتعبر أمامنا الطريق وكنا في واقع الحال نعود لنملأ عيوننا منها ... كانت بيضاء جميلة وقد لوحت جلودها الشمس .

وكان منها ذا السنام ولكنها كانت كلها مرفوعة الرءوس شامخة تحدث عن سلالة عربية أصيلة .

ولما بحثنا أمامنا لفرائها فقد أنسنا بها لحظات هنية ..

وبعد مرحلة طويلة من السير الجاد أدركنا أننا ضللنا الطريق وأننا نسير في غير وجهتنا .

وتملكنا الهلع وتوقفنا ونحن نرمي ببصرنا في كل اتجاه كأننا نتلمس المخرج من هذا التيه .

وقر قرارنا بعد أن تبينا المعالم والمعالم التي حولنا والتي كانت جديدة علينا أن نستقبل من طريقنا ما استدبر حتى نرجع خمسين كيلومترا الى الوراء .. ومن متفرج على الدرب تأخذ الطريق الصحيح الى البئر .

وفيما نحن نلف بالسيارة ظهر عند خط الأفق شيء اشبه بكوخ على ربوة ... فعجبنا لوجود مثله في هذه الصحراء القاحلة ..

وحسبنا أن أبصارنا خدعتنا في مثل السراب ولكن لما دققنا النظر وجدنا الأمر جليا وظهر الكوخ بوضوح .

ودفعنا الفضول والعجب أن نتجه اليه أولا اذ كان من الحكمة والصواب أن نسترشد بمن فيه على معالم الطريق .

واخذنا الطريق اليه ولما اقتربنا ظهر بيت من طابق واحد .. وأمامه بستان من النخيل ولم يكن على الباب أحد ..

***

وترجلنا من السيارة ودرنا حول المكان فلم نعثر على انسان ما ..

ثم تقدم أحدنا وقرع الباب — فوثب على صوت القرع كلب يبدو انه كان نائما في البستان وأخذ علينا الطريق .. ثم أخذ ينبح بنا في توحش فتراجعنا الى الخلف مدعورين وصاح أحدنا مرعوبا .

وخرج على الصوت شيخ طعن في السن وأطل من الباب بعينين صغيرتين وكان يلتفت بحزام ويعتمد على عصا الباب ويطل من وجهه المرض ...

وزجر الكلب ودعانا للدخول ودخلنا على التو .. لما تبينا انه مريض وان وقفته على الباب ستؤذيه ...

واعتذر الشيخ لمرضه ورجع الى فراشه في فناء البيت ... وهو لا يكاد يتماسك

وأدينا اسفنا لأننا أزعجناه وهو مريض وحكينا له ماحصل من ضلالنا في الطريق فبين لنا كيف اخطأنا — وخشي أن نصل آخر لو سرنا في هذه الساعة وندخل علينا الليل . واستحسن ان نقضي الليل في ضيافته وفي الصباح المبكر ... نستأنف سيرنا ..

ولان الشيخ كان في حالة شديدة من المرض وهو في هذا المكان رأينا أن نبقى بجانبه هذه الليلة لعلنا نقدم له كل عون ونساعده على الشفاء ..

وأشار بيده الى الشاي والطعام في الداخل فشكرنا بحرارة — وقلنا له ان معنا زوادة كافية .

وكان معنا اسبرين وبعض الأدوية التي تفي ضربة الشمس فصنعنا له شايا وقدمنا له الدواء .

وحدثنا عن حياته وكيف يتاجر في البلح والجمال ... وان أولاده متفرقون

في الصحراء يجرون وراء معاشهم ..
وانه منذ ماتت زوجته يعيش وحده ..

وقد اعتاد على هذه الوحدة والفها وأصبح يستانس بالحيوان كما يستانس بالانسان دون أدنى فارق ...

ولما دخل الليل اشعل السراج ولشدة الحرارة نمنا جميعنا في العراء خارج الكوخ ...

وترك الشيخ بابه مفتوحا ونام في مدخل الباب لمرضه .. وبعد الساعة العاشرة ليلا أحدثنا النوم جميعا ..

وفتحت عيني على شيء أسود وقف على رأسي ولما أمعنت البصر فيه صرخت وعلى أثر الصرخة صحا رفيقي الذي معه البندقية ولكنه من فرط الرعب الذي انتابه وهو ينظر الى الوحش ارتعشت يده ولم يحسن الزناد .. ثم اطلق طلقة طائشة .

وكان الشيخ قد بصر بالصبح في نفس اللحظة التي رأيته فيهما وظل يجاهد ويتحامل على نفسه وهو مريض حتى وصل الى منا والبندقية .. ورأيته ينتصب وقد التمعت عيناه وتضح وجهه عرقا ...

ونسي في غمرة الانفعال لما حدث مرضه تماما .

وخرج يشق الطريق في الظلام الى حيث الوحش ...

وكان كل من يراه وهو يمسك بالبندقية يدرك أنه رجل من طراز فريد في رجال الصحراء ... وطواه الظلام ولم نعد نراه .

وبعد قليل سمعنا صرخة وقرعنا ولم ندر أصرخته هو أم صرخة الوحش ولكن لم تمض لحظات اخرى حتى رأيناه راجعا وكان يمشي بتؤده ... ويسحب شيئا أسود ضخما لايزال يقطر منه الدم ..

وكنا قد سمعنا كثيرا ونحن نتجول بسيارتنا في هذه البيداء عن صقر الصحراء ولكنا لم نكن قد رأيناه عن قرب ...